المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الرابع من المجلد الخامس والسبعين

١ نوفمبر سنة ١٩٢٩ — ٢٩ جمادى الاولى سنة ١٣٤٨

خاصة للمقتطف

للسر أرثر كيث

مقومات الامم في نظر العلم

اصول الوطنية ونشوءها

كيف يعلّل العلماء الشعور القومي

نظر الاستاذ هكسلي الى مسألة الاقوام البشرية نظرة عالم بالحيوان . فطبّق على النساء والرجال الاساليب التي جرى عليها في درس الكلاب والطيور . وكان يذهب الى ان الرجال والنساء الذين يدّعون أنهم جنس خاص من البشر قائم بنفسه منفصل عن غيره يجب ان يتصفوا بصفات جسدية تمكن العالم بالاجناس من معرفتهم اذا اختلطوا بجمهور من الناس مختلفي الاجناس . « فالقومية » في نظره ليس لها مكان ما في نظام حيواني . والامة في رأيه ليست الا مجموعة من الناس تربطهم بعضهم ببعض الارض التي يقطنونها واللغة التي يتكلمونها والسياسة والتقاليد التي يجرون عليها . ولا نستطيع أن ننظر اليها كجنس مستقل نظراً علمياً

أما الرأي الذي اريد أن اعرضه على القارئ فاكثر مرونة من رأي هكسلي المتقدم الذي وضعه سنة ١٨٧١ واكثر مماشاة لمذهب النشوء. ولما كان هذا المذهب الجديد ينطبق على سكان القارات العالية فعلينا ان نطوّف الارض بنظرنا لنرى تفرق الشعوب والاجناس فيها التي انقسم اليها الجنس البشري

ولا نستطيع ان نفعل شيئاً افضل من الجري على آثار هكسلي لان التقسيم الجنسي الذي وضعهُ في العقد السابع من القرن الماضي لم يفقهُ تقسيم آخر في نظري دقة ووضوحاً . فلنتبع الحوادث التي افضت بهكسلي الى هذا التقسيم

في سنة ١٨٦٢ كان هكسلي يعدُّ كتابهُ المشهور الذي عنوانهُ «مكان الانسان في الطبيعة». فكان حتماً عليه ان يحقق نسبة الجمجمتين القديمتين اللتين كانتا قد وجدتا قبل ذلك وهما جمجمة زنجا التي وجدت سنة ١٨٣٣ في بلاد البلجيك وجمجمة نياندرتال التي عثر عليها في المانيا سنة ١٨٥٧ فكان عليهِ ان يتناول اجناس البشر الحيَّة بالدرس والبحث ليرى هل يجد فيها اخصاصاً لصاحبي هاتين الجمجمتين . وهكذا نرى هكسلي سنة ١٨٦٢ وهو في السابعة والثلاثين من عمرهِ مكبًّا على درس منتظم لاجناس البشر . فأصبح بذلك من علماء الاتنولوجيا (تفرق الاجناس البشرية) وبسرعة الرجل الذكي قبض على ناصية الموضوع وادرك ادراكاً شاملاً اهم الحقائق التي ينطوي عليها تفرق الاجناس البشرية كما ترى من العبارة التالية المقتبسة منهُ قال :

ارسم خطاً على الكرة الارضية من الشاطىء الذهبي في غرب افريقية الى مراعي التتار في تركستان نجد ان في الطرف الغربي من هذا الخط تعيش شعوب هي اكثر الشعوب استطالة في الرأس وبروزاً في الفك وجعودة في الشعر وسمرة في البشرة هؤلاء هم الزنوج الحقيقيون وفي الطرف الآخر تعيش شعوب هي اكثر الشعوب استدارة في الرأس وارتداداً في الفك وسبطاً في الشعر وصفرة في الجلد هؤلاء هم التتار والكلمك. فطرفا هذا الخط الوهمي هما قطبا الاتنولوجيا المتقابلان

وبعد ما رسم هكسلي هذا الخط الوهمي وقطبيه في مقدمة صورتهِ الاتنولوجية رسم خطاً آخر يخترق الكرة الارضية من بريطانيا الى استراليا قاطعاً الخط السابق في الشرق الادنى وماراً بالهند . ففي طرف هذا الخط من جهة بريطانيا تقطن الشعوب الشقراء وفي طرفهِ الاسترالي سكان استراليا الاصليون

اجناس البشر

وجرياً على هذه الخطة التي اتبعها هكسلي سنة ١٨٦٥ قسم سكان الارض الى احد عشر جنساً او الى احد عشر « نوعاً دائماً من الجنس البشري » اذا جرينا على تعبيره الذي كان يؤثرهُ . فكل جنس من هذه الاجناس كان خاصاً ببقعة من الارض يقطنها او ظلَّ محصوراً فيها من اقدم الازمنة الى زمن التاريخ الحديث. فلنمرَّ سراعاً بالاقسام الاساسية التي وضعها هكسلي وهي : (الاول) الاسترالي (الثاني) التسماني (الثالث) النجريتو او شعوب الباسفيكي الشبيهة بالزنوج (الرابع) الامفيزي ويطلق على الشعوب البحرية التي تقطن

جزائر الباسفيك وارخيل ملقا وجانباً من مدغشقر (الخامس) سكان اميركا الاصليون المنتشرون فيها من رأس القرن بجنوب اميركا الجنوبية الى سواحل لبرادور (السادس) الاسكيمو (السابع) الشعوب المغولية — المنتشرة من تيبت الى اليابان ومن تونكين بالهند الصينية الى بلاندا في شمال اموج وتروج (الثامن) الزنوج (التاسع) البوشمن . واخيراً الشعوب التي تقطن غرب آسيا وكل اوربا وهؤلاء قسمهم الى قسمين اولهما وهو (العاشر) من اقسامه العامة، الشقر في المنطقة الشمالية وثانيهما او (الحادي عشر) السمر في المنطقة الجنوبية او منطقة البحر الابيض المتوسط. وكانت الشعوب التي تقطن جنوب الهند مصدر حيرة كبير للاستاذ هكسلي ولكنهُ بعد لأي وضعهم مع سكان استراليا في صفٍ واحد

ولنعد النظر الآن في المقياس الذي يجري عليه هكسلي حين تقسيم الشعوب الى الاجناس الآنف ذكرها — وهو مقياس يجري عليه العلماء في علم الحيوان. ذلك ان كل فرد في كل طائفة يجب ان يتصف بالصفات التي تمتاز بها طائفته عن غيرها من الطوائف. فاذا كانت الاقسام التي وضعها هكسلي حاسماً ان كل واحدٍ منها تمتاز عن الآخر وأخذ مائة شخص من كل طائفة منها وعرّوا جميعاً من ثيابهم واختلط حابلهم بنابلهم وجب ان يكون من السهل على العالم الانثولوجي ان يعرف كل فردٍ منهم وان يضعهُ في الطائفة التي ينتمي اليها اصلاً . فكل جنسٍ من اجناس البشر تستطيع ان تعرف افراده حال رؤيتهم هو جنس تيّ قلباً وقالباً (مائة في المائة) في سلم الاختلاف الجنسي . ولكن اذا صحّ مذهب النشوء وجب ان نجد شعوباً خليطة متدرجة في الصفات الجنسية التي تفرّق بين جنس وآخر

على ان هكسلي عدّل نظرهُ الى تفرق الاجناس الجغرافي لاسباب جمّة . فقد بدأ مباحثهُ وهو ينتظر ان يثبت لهُ ان شكل الجمجمة هو المقياس الاساسي الذي يبنى عليه تفريق الناس الى اجناس . فخاب نظره في ذلك اذ وجد ان صفات الجمجمة انما هي صفات لها مقام ثانوي من هذا القبيل . ووجد ان من الشقر من يكون مستطيل الجمجمة او مستديرها . ومن المغول من هم كذلك . وتحقق ان الصفات التي عليها يبنى التفريق بين الشعوب انما هي الصفات السطحية كلون البشرة وشكل الشعر . وانا اضيف الى هاتين الصفتين سمات الوجه التي يصعب قياسها ولكنها لا تخفى على احد

الفرد والاجناس

وقد اخذ العلماء في هذا العصر يلقون النور بمباحثهم على الاساليب التي تجري عليها الطبيعة في خلق الاجناس البشرية. فلدينا الآن ادلة مقنعة تشير الى ان نموّ الجسم وظهور الصفات الجنسية

المختلفة فيه يتوقفان الى حد بعيد على التركيب الفسيولوجي الذي مركزه في الغدد — الغدد الصماء او غدد الافراز الداخلي . فهذه الغدد تفرز مفرزات تدعى « هرمونات » لها اثر كبير في السيطرة على نمو الاعضاء . والعجب كل العجب اننا لم نكتشف عن وجود نظام مسيطر على النمو كهذا النظام من قبل لانهُ كان معروفاً من اقدم الازمنة الى الآن ان خصي الفتيان (اي ازالة الخصيتين وهما من غدد الافراز الداخلي والخارجي معاً) لهُ اكبر اثر في تغيير اتجاه النمو . فهذه العملية تنشىء رجلاً لهُ صفات كانها صفات جنس مستقل هو الخصي . فلدينا الآن ادلة ثابتة على ان الخصيتين فضلاً عن توليد الخيوط المنوية تفرز مفرزات داخلية تدور مع الدم في كل الجسم ولها اثر كبير في ضخامة الجسم وطول الاطراف وتكوين العظم وقوة العضلات وتخن العنق وحجم الفكين وشكل الانف والحاجبين ونمو الشعر ونعومة البشرة

وهذه الصفات هي هي الصفات التي يمتاز بها جنس من البشر عن جنس آخر . ففي جسم الخصي أبلغ مثل على فعل هذا التركيب الحيوي الذي يغيّر صفات الجسم التي يمتاز بها . فاذا شئنا ان ندرك شيئاً من الاساليب التي تجري عليها الطبيعة في خلق الاجناس الجديدة فلنولِّ وجوهنا شطر هذا التركيب الحيوي الذي يسيطر على النمو ولنحاول فهمهُ

التجمع والانعزال

من المسلَّم بهِ ان اكثر الاجناس البشرية المعروفة الآن نشأت في احوال مماثلة للاحوال التي يعيش فيها سكان استراليا الاصليون الى يومنا هذا . فهذا الجنس من البشر مقسَّمٌ الى قبائل كل قبيلة تعيش في منطقة معيَّنة من ارض الصيد والقنص واضحة المعالم والحدود لا تعدوها الى غيرها . فاذا عدت القبيلة الحدود الى منطقة جيرانها حسب هذا تعدياً وعليها حينئذٍ اما ان تلجأ الى القتال او ان يولي رجالها الادبار ويتراجعوا الى منطقتهم . فالغيرة والمقاومة اللتان تفصل بين قبيلة واخرى تعزلان كل قبيلة عن جارتها . ولكن قوى اشد فعلاً من هذه العواطف تربط كل قبيلة بارضها . فابناء كل قبيلة يتكلمون لغة واحدة ويجرون على طائفة واحدة من العادات والمعتقدات والتقاليد ولهم مصالح مشتركة وهم فوق كل ذلك ذوو قربى . فكل فرد من افراد القبيلة متصل بارضه اتصالاً عاطفياً قوياً . فاذا بعد عنها تاق الى العودة اليها . واذا حفَّ بارضه خطر ما اثَّر فيه انفعالاً عقلياً قوياً اساسهُ ثورة العاطفة وهذا الانفعال يعرف بالوطنية . هذا الانعزال هو العامل الاقوى في تكوين صفات جديدة يمتاز بها فريق من البشر دون فريق آخر . وعليه فهو سبيل الطبيعة المعهَّد لتوليد الاجناس البشرية

فنظام القبائل هو سبب انضمام الشعوب الى التجمع والانعزال وهذا الانعزال لا مندوحة عنهُ للانفعال الفزيولوجية حتى تخلق صفات جديدة يتألف من مجموعها مميزات الاجناس الجديدة

والآثار التي تدل على وجود نظام القبائل في القدم تعثر عليها في كل انحاء العالم وكانت لاتزال باقية الى عصرنا في «انحاذ» امكتلندا. وقد كان هذا النظام عامًّا يشمل جميع بلدان الارض عصوراً متطاولة . فدماغ الانسان نشأ في الزمان الذي كان فيه نظام القبائل سائداً . ان كل قوى العقل والشعور فيه وكل انفعالاته نشأت نشوءاً يمكنها من قضاء مطالب النظام الاجتماعي السائد حينئذ ومن طريق الصدفة اسعدت هذه القوى يداً الى الارتقاء البيولوجي العام

ومن العوامل الطبيعية التي ساعدت الشعوب على التجمع في بقع معينة والانعزال عن غيرها الحواجز الطبيعية التي لم يقوَ عليها الانسان في عهد العمران كسلاسل الجبال كجبال الهملايا مثلاً — والصحارى الشاسعة المقفرة كالصحراء الكبيرة — والبحار الواسعة كالاوقيانوس الاتلنتيكي

واقتسام الارض مناطق يقطن كلَّ منطقة منها قبيلةٌ خاصة لنظام لا ينفرد به الانسان بل تجري عليه الحيوانات البونة العليا كذلك. ولكن في احوال خاصة تتحول الغرائز التي تربط الحيوان بارضه الى ضدها فتحمله على هجرتها في طلب ارض اخرى. فطائفة الغرائز الاولى ترعرع النوع في ارضه وتولد فيه الصفات التي يمتاز بها عن غيره والطائفة الثانية تحمله على التوزع والانتشار . والمدوّنات التاريخية لا تتركنا في ريب ما من اتصاف الانسان بهاتين الطائفتين من الغرائز . على ان الهجرة كانت عاملاً ثانويًّا من عوامل النشوء ليس لها مقام كبير في نشوء الانسان ولولا الانعزال لما تمنى لجماعة من الناس ان ينشئوا جنساً جديداً

وهنالك عامل آخر من عوامل الانعزال هو ذلك الانفعال الفطري الذي نطلق عليه اسم الشعور الجنسي . فكل الحيوانات تعرف بفطرتها الحيوانات التي من نوعها . وهي كذلك تعرف الحيوانات التي ليست من نوعها . وهذه المعرفة الاخيرة يصحبها في الغالب الشعور بنفور شديد . فالشعور الجنسي يبقى كامناً في صدور الرجال والنساء ما زالوا يروحون ويجيئون بين ابناء جنسهم . ولكنهم متى عدوا حدود المنطقة الخاصة بهم الى منطقة قبيلة أخرى او جنس آخر تيقظ في نفوسهم عواطف فطرية قوية هي اصول الشعور الجنسي. وفي بعض الاحوال قد تؤجج هذه العواطف في صدورهم نار التحمس والانفعال وتخرج باصحابها من ميدان الحكمة الى ميدان التهوّر . واني انظر الى هذا الشعور الجنسي كاسلوب

من اساليب النشوء للاحتفاظ بنقاء الجنس ومنعه عن الاختلاط بالاجناس الاخرى حتى لا يفقد مقومات شخصيته . فما يثور في صدور البشر من عناصر الغضب لهُ في الغالب اصل بيولوجي وفائدة بيولوجية

التزاوج والاجناس الخليطة

كان هكسلي يميل الى ان يحسب الاجناس الخليطة المتوسطة بين الاجناس الصافية ناشئة عن التزاوج . ولكن اذا كانت افعال النشوء سارية في الخلق منذ فجر البشرية واذا كانت لا تزال تفعل في جسم الانسان وعقله وجب ان نجد اجناساً متوسطة بين الاجناس الصافية نتيجة لازمة للتغيُّر الطبيعي من غير ان نلجأ الى مذهب التزاوج لتعليل وجودها . ان مذهب النشوء اذا صحّ تطبيقه على الموضوع الذي تنظر فيه ، يقضي بوجود اجناس في كل درجات التفاوت والاختلاط بين الاجناس الصافية . وهذا ما نجدهُ . لذلك اختلف علماء الانثرولوجيا في عدد الاجناس البشرية الاساسية . فذهب هكسلي اولاً الى وجود احد عشر جنساً ثم هبط بالعدد الى اربعة . وبدأ الاستاذ هيكل باثني عشر جنساً في سنة ١٨٧٣ وجعلها اربعة وثلاثين جنساً سنة ١٨٧٩ واخيراً رأى وجوب الاعتراف بوجود ١٧ جنساً اصليًّا و٢٩ جنساً فرعيًّا

ان عدد الاجناس يتوقف على درجة الاختلاف بين الاجناس التي نتخذها مقياساً

انا لا اقول ان التزاوج لم يحدث قط في الماضي ولا هو حادث الآن على الحدود الفاصلة بين بلدان الاجناس المختلفة . ففي بعض الاماكن بلغ التزاوج حدًّا بعيداً . ولكن بعد كل ذلك نجد ان التزاوج ليس الاّ عاملاً ثانويًّا في نشوء الاجناس . انا لا نستطيع ان نعلّل به حالة الاجناس البشرية ولكننا بمذهب النشوء نستطيع ذلك

فقد بلغنا الآن درجة من العلم يجب معها ان يفهم كلُّ المشتغلين بالمباحث الانثولوجية ان كل سعي لتقسيم البشر الى اجناس يجب ان يقوم على اساس تشوئي . ففي انحاء الارض نجد شعوباً تمتاز كلَّ الامتياز عن غيرها وفيها يستطيع العالم ان يعرف كلَّ فرد من افرادها ويعيّنهُ للجنس الخاص به اذا رآهُ في قوم خليط . ثم هنالك اجناس هي على درجة تسعين في المائة من الصفاء اي انك اذا عرضت على عالم مائة فرد منها في خليط من الناس لم يستطع ان يعرف اكثر من تسعين فرداً منهم اتكالاً على ظهور الصفات الخاصة التي يمتاز بها جنسهم عن غيره من الاجناس . وهكذا نجد اجناساً على درجة ثمانين او سبعين او ستين من الصفاء فهذه الطوائف من الناس كلها اجناس بالمعنى البيولوجي الحقيقي . كلها درجات في سلّم النشوء

الزراعة

وحين نعمد الى البحث عن القوى التي قضت على نظام القبائل الذي كان سائداً في اوربا في العصور القديمة يجب ان نرجع الى الشرق الادنى في العصور السابقة لتاريخ المدوّن . ففي بقعة من الشرق الادنى كشف عن الفن الذي تقوم عليها الحضارة الحالية اعني الزراعة. فالقبيلة او طائفة القبائل التي وفقت الى هذا الاكتشاف سبقت جاراتها وتفوقت عليها فزاد عدد ابنائها لما زاد مقدار الطعام الذي تنتجهُ الارض. ولم يلبث ان ضاقت المنطقة الخاصة بهم عن ان تسعهم فاخذوا في الانتشار . فالمذهب القائل بان الشرق الفوقاني هو مهد الحضارة متفق وكلّ الحقائق العلمية المثبتة لدينا . ومن هذا الشرق اخذ الناس يتدفقون موجةً اثر موجة الى اوربا . فزالت الحدود الفاصلة بين مناطق القبائل الخاصة ونظام القبائل القديمة الذي جرت عليه الطبيعة لخلق الاجناس الجديدة اصابهُ اختلال وتشويش . ولكن هذا النظام لم يزل كلّ الزوال . فان العلماء الى الساعة يعلمون ان اوربا لا تزال مقسمة الى مناطق ففي الجنوب تقطن شعوب مستطيلة الرؤوس سمراء البشرة وفي الشمال شعوب مستطيلة الرؤوس شقراء البشرة وفي المناطق المتوسطة بين الشمال والجنوب تقطن شعوب متفاوتة الدرجة من حيث استدارة رؤوسها ولون بشرتها . فالحضارة قد شوشت نظام الطبيعة النشوئي في كل المنطقة الفوقانية

الحرب

واجال هكسلي نظرهُ في سكان بريطانيا فدرك ، وهو العالم بعلم الحيوان ، انهم ككل اوربا خليط من الاجناس المختلفة وان القومية البريطانية مزيج من الاجناس القاطنة اوربا سمراء وشقراء لذلك حمل حملة شعواء على كل من يدعي انفصال القومية البريطانية عن سائر القوميات الاوربية قائلاً ان الذين تألف منهم هذه القومية جنس خاص منفصل عن بقية الاجناس الاوربية . ومذ اعرب الاستاذ هكسلي عن رأيهِ هذا ثارت الحرب الكبرى الدامية فكشفت عن الميول الفطرية الاصيلة في الطبيعة البشرية واطلقت لها العنان . وبعد ماوضعت الحرب اوزارها هبّت القوميات الصغيرة تطالب بكيانها المستقل جرياً على مبدإ تقرير المصير فاقبل رجال السياسة على عملهم وهم يحسبون ان بين ايديهم مسائل سياسية لامسائل بيولوجية . واذا صحّ المذهب الذي بسطتهُ في نشوء الاجناس وجب ان تعالج مسألة القوميات معالجة بيولوجية نشوئية . ان حركة المطالبة باستقلال القوميات الصغيرة سببها ثورة الذكرى في طبيعة الانسان لنظام القبائل القديم . فهو جوّ الحرب انطلقت الميول الفطرية التي كانت كامنة في صدور البشر بعد ما ازال عنها القتال طلاء الحضارة الحديث